مكتبتي ١٦

المقعد المتحرك

فاضل

وقصص أخرى

بقلم : عبد التواب يوسف
رسوم : منى حامع

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة : ج . م . ع .

إعداد الماكيت / **أمانى والى**

- ١ -

أنتم تَجلسون على الكراسى ، ثُمَّ تَقومُون عنـها.. وتَتحركُـون.. وتَسـيرُونَ.. وتجرُون..

أمَّا أنا، فإنّنى أجلسُ على الكرُسى، وهُوَ الَّذى يَتحرَّكُ بى..

أنا لا أستطيعُ أنْ أتحركَ، ولا أقدرُ عَلَى السَّيرِ ولا يُمكنُنِى أنْ أجرى..

ذَلِكَ ، لأن رجَلَىَّ لا تستطيعان أن تَحْمِلاَنِى.. هكذا شاءَتْ إرادةُ اللهِ..

وتَعرفون أنّى حَزين لهذا ، وكُنـتُ أريـدُ أنْ أكـونَ إنسـانًا عَاديًـا وطَبيعيـا.. لكننى قُلت لنفسى:

هل أفكرُ فى هَذَا ليلَ نهارَ؟ هل أظلّ حَزِينًا طُوالَ الوقتِ ولا أفعلُ شيئًا؟!..

كَانت إجابتى : لاَ .. إذا كنت قَد حُرِمتُ من هَذهِ النعمـةِ فقَـد أعطـانى اللهُ (عَقلاً) أفكـرُ بـه، وأتحـركُ بخيـالى، وأطـوفُ الدنيـا وأنَـا فـى مَكـانى.. وكـلُّ مَا عَلىَّ أن أفتحَ: عَينىّ، وأذنىَّ، وقلبى للحياةِ الَّتى مَنحنِى اللهُ إياهَا..

لكن الَّذى يُزعِجُنى، ويَحُزُّ فـى نَفسـى، هـم النـاسُ الَّذيـن ينظـرون إلىَّ، ثُـمَّ يَتبادَلون النظراتِ، وفيها عطفٌ علىَّ، وعَلَـى حَـالى.. وهُـم قَليـلا مَـا يَتبـادلون الحـــديثَ مَعِى ، لأنهم يَظنــوننى عَاجــزًا - أيضًا - عن الكـلامِ معهم.. نَعم،

أنا قليلُ الكلام، وقد أكونُ بَطيئًا فيه بعضَ الشيءِ، وذلك لأننى أبقَى وحدى وقتًا طَويلاً، لكننى مع ذَلِكَ لدىّ ما أقولُه..

إنّنى أستمعُ إلى الإذاعةِ، وأطربُ للمُوسيقَى، وأتابعُ برامجَ الأطفالِ فيها، ولى آراءٌ أتمنى لو أنّنى نَقلتُها إليهم.. كما أنّنى أشاهدُ «التليفزيون»، ولا أطيلُ فى هذا، ولا أطيقُ الكثيرَ من البرامجِ السّاذجةِ، واللهجة الّتى يُدَلّلُونَنَا بِهَا خلالَ مخاطبتنَا.. والحقيقة أنَّه دَلالٌ مَمْجوجٌ، كما لا أحبَّ ملابسَ المذيعاتِ وأضيقُ بالطريقةِ الّتى يُصفِّفْن بها شَعرهن، وأظن أنَّهن سيكُنَّ أفضلَ لو أنَّهُن اهتَمَمْنَ برءُوسِهن، ولو أنَّهن خَاطَبْن عُقولَنَا.. وتمنيتُ لو أنَّهُن اسْتَضفُنَا، كى أقُولَ لَهُنَّ هَذَا، حتَّى لو غَضِبن وضِقْن بى.. لكنَّهُن يَغْفلن عَنى وعن أمثالِى، وإذا ما فكَّرن فى تَقديمنا للمشاهدين أسَأْن إلينا أكثر ممّا يَحْسِنَّ.. ولستُ أملك إلا أن أكْتفى بمشاهدةِ مَا يُسلينى ويُمْتِعنِى من برامجِ الكبار..

- ٢ -

بعضُ الناسِ يَظنون أنَّه من الأفضلِ لنا أن نَبقى فى بيوتِنَا، وأنْ نُغلِقَ عَلينا الأبوابَ.. لكنَّ الإعلانَ العالميَّ لحقوقِ الطّفل، والاتفاقيةَ العَالميةَ حولَ هَذِه الحقوقِ تُعطينا الأملَ فى أن نُعاملَ مِثلَ الأسوياءِ.. سواءً بسواء.. وأن نَتساوى معهم.. بل إننا كما يُسموننا: ذَوى الحالاتِ الخاصة، نَحتاجُ إلى مُعاملةٍ خاصة.. وحقِ المساواةِ، وحقِ التَّعليمِ وبَاقى الحقوقِ ، يَجبُ أن تُتاحَ لنا فرصةُ مُمارسةِ كلِ النشاطاتِ الإنسانيةِ.. إننى إذا لم يُلحقونِى بمدرسةٍ أتعلمُ فيها، فالواجبُ عليهم أن يُقيموا مدرسةً لى، ولأمثالى.. إن حرماننا من التعليم يَحرمُنَا أكثرَ من الحياةِ، ألا يَكفى ما حُرمناه؟! ، لكى تُضيفوا حرمانًا جديدًا ؟ ! . .

قد نكونُ من أصحابِ السيقانِ المشلولةِ ، أو بلا ساقين عَلَى الإطلاق ، لكننا - كما قُلتُ - من أصحابِ العقول.. وقد عَرفت أن الرجلَ الَّذى قادَ أمريكا فى الحربِ العَالمية الثانيةِ، والَّذى كَانَ رئيسًا لدولتها كَانَ يَتحركُ على كُرسى مثل الكُرسى الَّذى أتحركُ عَليه، وأعنِى به (روزفلت).. والصورُ التَّى كانت تُلتقطُ لَهُ كانوا حَريصين فيها عَلَى أن يَكْتفُوا بنصفِهِ الأعلى، وفيه رأسُه الَّذى استطاعَ أن يَجلبَ به النصرَ لبلده وللحريةِ، عَلَى النازية والفاشية..

ولقد رأيتُ عَلَى الشاشةِ الصَّغيرةِ أمثالى عَلَى كَراسٍ مُتحركةٍ يُمارسون الرياضةَ.. هُم بالطبع لا يَلعبون كرة القدمِ، لكنهم يُجيدون كرةَ السلةِ، وقد استمتعتُ بمباراةٍ رائعةٍ بين فريقين، وَجميعُ لاعبيهم يَتحركون فوقَ الكراسى، وكانَ الجمهورُ يُتابعُهم ويَهتِف لهم، وإذا مَا سقطَ أحدهم لا يَضحكُ مُشاهدٌ

واحدٌ، لكن يُعينوه عَلَى أن يستعيدَ مكانَه ليواصلَ اللعب.. هَل يَضحكُ أحدٌ إذا وقَعَ لاعبُ كرةِ قدمٍ؟

ونَحنُ نلعبُ أحيانًا الهُوكى، بل أحيانا عِندما أكونُ فى الملعبِ أشاهد مباراةً فى كُرةِ القدمِ؛ قد يقذفُ أحدهم بالكرةِ نحوى، ولا أتأخَّرُ قط فى ضَربها بالكُرسى الَّذى أجلسُ إليه.. أليسَ هو بمثابة القدم بالنسبةِ لى ؟

وأنا أضيقُ بِمنَ يَدفع أبناءَهُ ويْجَعلَهم يَأتُون لكى يلعبُوا معى، أنا أحب أنْ يَأتِىَ هؤلاء برغبتهم ومن تِلقاءِ أنفسِهم، رَاغبين فى اللِّقاء بى، واللَّعب معى، بجانب تبادل الحديث.. إنَّنى أفضلُ أن أكونَ وحدى عَلَى أن يُشاركَنى أحدُهم اللعبَ مُضطرا، إذ لا بأسَ من الوحدةِ الَّتى أجدُ فيها كتابًا أقرؤه، وربما استمتعتُ بالتفكيرِ فى الإجابةِ عَلَى سؤالٍ خَطَرَ لى أو طَرحهُ أحدٌ علىَّ..

- ٣ -

وأنا فى لحظاتٍ كثيرةٍ أشعرُ بالحزنِ والضّيق، وأغضبُ وأثورُ، وأحيانًا أبكى، ويَرتفعُ صوتَ بُكائى ليُصبحَ نَحِيبًا.. بعضُ الكبارِ يَظنون أنَّهم وراء ذَلِكَ، وأنَّهم السببُ.. والحقيقةُ أنَهم أبرياءُ تمامًا من هَذَا الاتهام الَّذِى لم يخَطر على بَالِنَا.. إنَّ كُلَّ النَّاسِ تَمرَّ بهِم مثلُ هَذَه اللحظاتِ، ولسنا وحدَنا- الَّذين تسَمونهم عَجزةً أو مُعوقين - الذين يحدث معنا هذا..

والغريبُ أنَّ البعضَ يَأتُون ليتحدثوا إلىَّ، وكثيرون منهم يَشكون من أمورٍ تضَايقهم، ويَستشيرونَنى فى مَصاعبَ تُواجهُهم، ومَشاكلُ يَقعون فيها.. وأنا أحسنُ الاستماعَ إليهم، وَيُسرنى أنْ أخَفِفَ عَنهم بهذه الطريقةِ، وربما استطعتُ أنْ أعينهم عَلَى مَصاعبهم ومُشكلاتهم.. وعِندمَا أفكرُ فى هَذَا الَّذى يصنَعونه معى أجدُ فى نَفسى الكثيرَ من الثقةِ، وأرَانى قادرًا عَلَى أنْ أفكرَ، وأن أساعدَ.. مع أنَّ ظُروفَهم أفضلُ من ظُروفى بكَثِير، وخبراتُهم أكبرُ وأعرضَ، لأنهم يتَحركون بصورةٍ أوسعَ، وأحسنَ، كما أنَّهم يَختلطُون مع الآخرين باستمرار، ولا يقضون ساعاتٍ طوالاً وحدهم كما يحَدثُ لى ومعى، ومع الّذين ظُروفهُم مثلُ ظُروفى، ونَحنُ نكونُ أحسنَ حالا حين نكونُ مع الناس، أمّا عندمَا ننفَردُ بأنفسنا فنُحسُّ بشىءٍ من الأسفِ والحزنِ.. بل والتعاسةِ لكنَّنى لا أستسلمُ أبدًا، وأتحدَّى الوحدةَ والفراغَ، وأجالسُ كبارَ المؤلفين، بأنَ أقرأ لهم.. ومن هنا كان حرصى الشديدُ على أن أتعلمَ القراءةَ والكتابةَ، لأننى أحوجُ إليها من الآخرين.. نعم، هى ضرورةٌ للجميع، غير أنها بالنسبة لى « ضرورة حتمية » .. وكلَّ الناس - ولست وحدى فى هذا - تمر بهم لحظاتُ الضيقِ

والحزن، دون أن يكونَ عندهم كُرسىٌ مُتحـركٌ، غـير أنَّ لديـهم أسـبابًا أخـرى للأسفِ والأسى.. وبعضُهم، بل كثيرون منهم يأتُون إلىّ ليشكُوا ظُروفهَم واستمعُ إليهم فى اهتمامٍ كبيرٍ، فقـد أسـتطيعُ أن أسـاعدَهُم.. وربمـا يظـنُ النـاسُ أننـى الجديرُ بأن أشكُوَ، وأتوجعُ لظروفِـى، وتعتريـهم الدَّهشـةُ لأنـى أرى فـى ذَلِـك مذلةً، أترفعُ عنها، وَأحِـسُّ ببعـض الرضـا عـن نفسـى حـين أسـتمعُ لشـكاوى الآخرين، وليس ذَلِك قطَ بتشفٍ منهم، بل أنا متنبهُ لأحزانـى الخاصـة، التـى أحاول أن أتجاوزَهَا، وأحاول أيضَـا أن أعـاون الآخريـن فـى تَجاوُزهَـا.. لذلـك أمعنُ التفكيرَ فيما يَعرضه علىّ أصحابى من شكاوى.. وهى صغيرةٌ وبسـيطةٌ إذا قارنتُموها بما عندى.. ويالها من لحظةٍ سَعيدةٍ تِلك الَّتى يـأتينى فيـها صـاحبُ شكوى كنتُ قَد اقترحتُ عليه حلاً، ونفّذَه.. أنَّ يَشكرَنى ويحييننى لأنىّ أعنتُـه وساعدته.. وأنا الجديرُ بـأن أشـكرَهُ وأحييـه إذ أعطـانى المزيـدَ مـن الثِّقـةِ فـى نفسى!

- ٤ -

وأحيانا، أكونُ بالبيتِ مع أخى، ويَأتى أصدقاءُ لَهُ، ليزورُوه ويَلعبُوا معه، وهم لا يحبون أن أشاركَهم اللَّعبَ، بحُجة أنَّنى لا أجيدُه، بل أعوقُهم عنه، ويَحدثُ أن يَضحكوا أو يَسخَروا من طَريقتى فى اللَعب، وهَذَا يُسبب لى حُزنا عميقا.. وأصحابُ المقاعدِ المتحركة حين يَغضبون، يؤْلمهُم ذَلِك ألمًا شديدا، لأنَّهم لا يَقدرون عَلَى التنفيس عَن غضَبهم بطريقةِ الآخرين الذين يقذفون بأشيائهم، أو يَتشاجرون بأيديهم، لهذا نلجأ للكلمات نقذفها من أفواهِنا كالطوب والأحجار، قاسيةً ، وأحيانا يحَاول البعضُ منا بكراسيِّهم المتحركةِ أن يطاردوا مِنْ يُسىء إليهم ويُغْضِبُونهم ويهدّدونهم - كما تقول الكتبُ - بالويل والثبور وعظائمِ الأمور! لأنَّنا لا نقدرُ عَلَى اللحاقِ بهم، وكلُّ مُا نبغيه أن ندفعَ عن أنفسنا الإساءةَ إلى مشَاعرنا، ونحاولَ أن ندافعَ عن كرَامتنا، ونُخففَ ما نَشعر به، خاصةً وبيننا من هم أذكياء.. إننى شَخصيا متفوقٌ فى لعبةِ الشطرنج، وأفوز عَلَى مَنْ هم أكبرْ منى سنًا، وبعضٌ منْ زملائى فى المدرسةِ يصعبُ عليهم أن يُحركوا القطعَ أو ينقلوها بأصابعِهم الضعيفة، لكننى لحسن الحظِ أقدرُ عَلَى التحكمِ فيها، والإمساك بها..

وجلُوسنا الطويلُ على مَقاعدنا يُحتم عَلينا أنَ تكونَ لنا هواياتٌ كثيرةٌ.. جمع طوابع البريد مثلا واحدة من الأشياء الّتى تُمْتِعنى.. يحاول أهلى وأصدقائى عِندمَا يُسافرون أن يعودوا إلىَّ بطوابع البلادِ الَّتى يَزُورونها، كما أنَّنى أبادلُ طوابعَ بلادِنَا بطوابعِ بلادٍ أخرى عن طريق الرسائل، وأنظمُ وأرتبُ طَوابعى فى

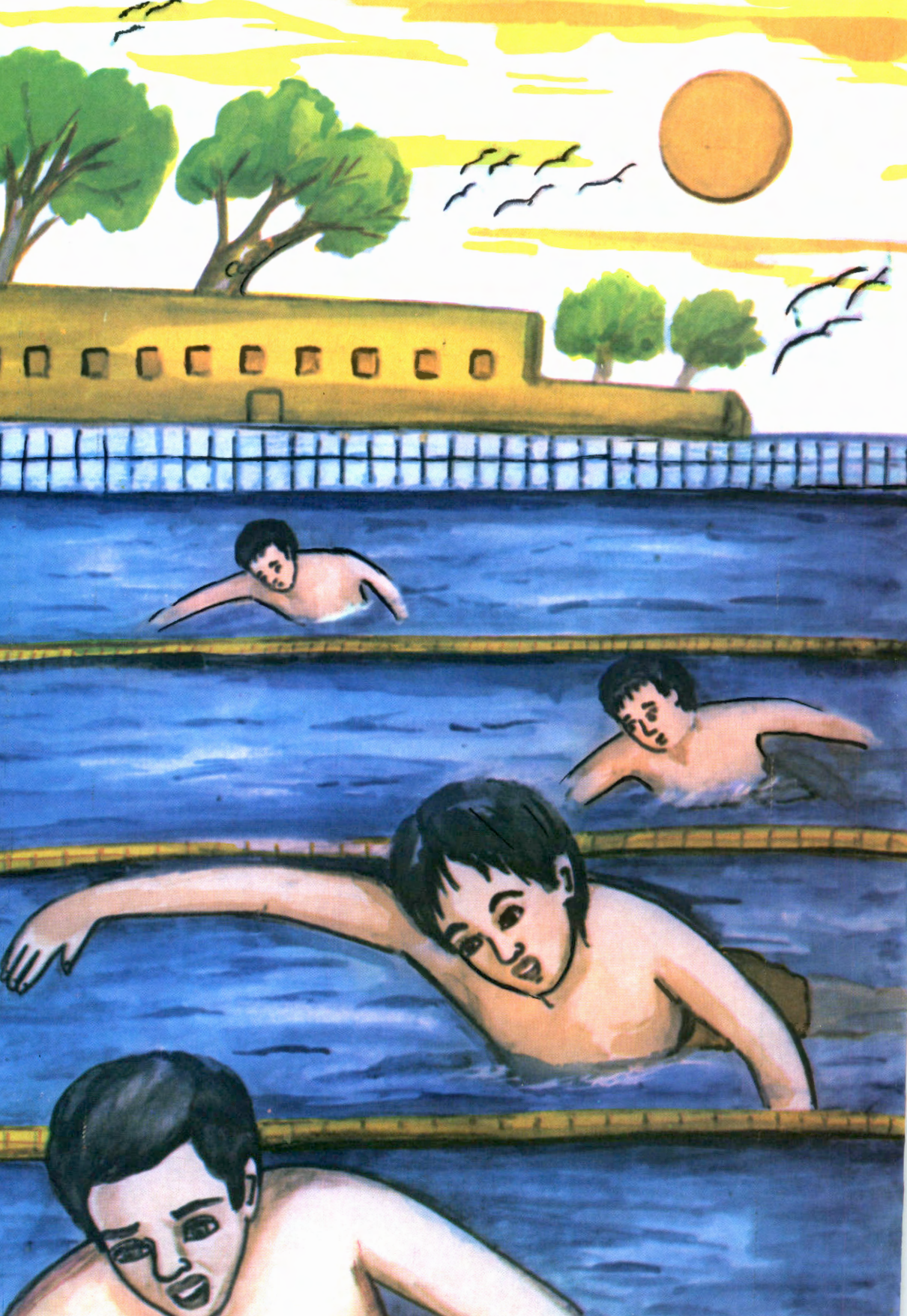

(ألبومات)، وأتَنازلَ عن المكرر منها لأصدقاءَ يفعلون معى نفسَ الشىءِ.. إنها خبرةٌ، تَعلمتُ مِنْ خلالها معلوماتٍ كثِيرةٍ عن البلاد التى تصدرُ فيها..

وإلى جوار طوابع البريد تَدرَّبتُ عَلَى أن أدقَّ عَلَى الآلةِ الناسخة، بل نجحتُ فى التعاملِ مع « الكمبيوتر »، وتفوقْت فى ذَلِك، وأظن أن هَذَا سَوفَ يُتيحُ لى فرصةً أنْ أجدَ عملاً عِندما أكبرَ.. خَاصة وقد سمعْت أن القانونَ ينصَّ على أن تكون هُنَاك نسبةٌ خاصةٌ لأمثالى فى الالتحاق بالوظائفِ فى الحكومة والمؤسساتِ والشركاتِ الكبيرةِ.. إنه حلمٌ لى لا أظن أن تحقيقَه سيكونُ صعبًا، فإنَّنى أرفضُ أن أظل حبيس البيتِ والمقعدِ، وأريدَ أن أساهم بشىءٍ مَّا فى إعالة نفسى مُستقبلاً، وأن أشاركَ فى بناءِ مجتمعى وبلدى.. رغمَ الظروفِ الصعبةِ التى أعيشها.. ولن أقبلَ أن اظلَّ عالةً عَلَى الآخرين عِندمَا أكبَر وأصيرُ قادرًا عَلَى العمل..

وفى مدرستنا، نُمارس ألعابًا رياضية عديدة، منْ بينها كرةُ السلةِ، والسّباحةُ، وما إلى ذلك.. إن فى رياضاتنا كثيرًا من المسابقات الَّتى يَطيبُ لى أن أشاركَ فيها، بل إنَّ فرقنا - كما قلت - تحصلُ عَلَى جوائزَ كبيرةٍ فى مبارياتِهَا خارجَ بلادِنَا.

- ٥ -

ونحن لنا مجتمعُنا الخاصَ بنا..

هُناكَ أنديةٌ لنا، نَلتقى فيها، لنتسامرَ ونتَحدثَ، ونَحكى، ونَطلقُ الفُكاهات، وتَرتفعُ منا الضحكاتُ.. إنَّ الحياةَ لا يمكن أنْ تكونَ بالنسبةِ لنا شديدةَ الكآبةِ، تَمنعُ الدُّموعَ فى عُيوننا، بل هى تُمتّعنَا، وتُسرُّنا، ونَشكر اللهَ أن وهبنا إياها لنمارسَ بعضَ جوانِبهَا، مُتَحدِّين الظروفَ، قَادرينَ بالعزيمةِ عَلَى جَعلها أفضلَ، وأحسنَ..

إنَّنا نَستمعُ إلى الموسيقى، ونتَذكرُ زملاءَ لنا قد حُرمُوا من ذَلِك بسببِ آذانِهم المعطوبةِ، وبيننا من لديه الآن « تليفون » محمولٌ ، يُفيده إذا كان فى مكانٍ بعيدٍ، ولم يستطع العودةَ إلى بيته، وقد يحتاجُ أو نحتاجُ إلى نجدةٍ سريعةٍ، يعيننا عليها..

ولقد استطاعَ بعضُنا أن يلتحقَ بمدرسةٍ عاديةٍ، يُشارك التلاميذَ فى دُروسهم من فوقِ مقعدهِ المتُحرك، وكنتُ سعيدَ الحظِ بذلك، وإن كُنت أضيقُ بنظراتِ العطفِ التّى تُطلُّ من عيون زملائى، الَّذين لا يُدركُونَ أنَّ كلَّ البشر لديهم مصاعبُ وعقباتٌ، وأن «التحدِّى» هو الذى صَنعَ حضارةَ الإنسانِ عَلَى الأرض، وقد اندهشَ زملائى من استيعابى لدروسى، ومنافستِهم على ترتيبٍ متقدمٍ، والمعلماتُ والمعلمونَ يروننى تلميذا مُتفوقًا، ويرَوْن ذلك شيئًا عاديًا وطبيعيا، ولا غرابةَ فيه..

وفى تقديرى أنَّ النَّاسَ إذا ما فهموا ظُروفَنا وقَدرُوها فإنَّ ذَلِكَ سيكونُ مُعينًا لهم عَلَى مُساعدتِنا بشكلٍ راقٍ، ومهذبٍ، وبطريقةٍ ودودةٍ ومحترمة، بديلاً عن العطفِ الَّذى يُحرَجِنا ويُخجِلنا، ويُشعرنا بأنَّنا أقلُ منهم مرتبةً ومكانةً.. إنَّهم قادرُون عَلَى أن يجعلونا نَندمجُ فى المجتمعِ ونُشارك الأسوياءَ فى بنائه.. إننا توَّاقون إلى أن نُعامَلَ كالبشر، بمساواةٍ، ونِدّيةٍ.. إننا سواء.. ونودُّ أن نُعاملَ عَلَى هذا الأساس.. بلا زيادةٍ أو نقصان.. هَذَا يُشعرنا بآدميتنا.. بكرامتِنا.. وبأننا لسنا «عالةً» ثقيلة، أو كَمًّا مهملاً.. وعَلَى الجميعِ أن يفهموا تلك العبارة الخالدة:

«ارحمُوا مَنْ فى الأرض يرَحمْكم مَنْ فى السَّماء»

والرحمةُ هُنَا لا تُعفى هذه النظراتِ الجارحَةِ، والَّتى يمكن أن تُنبْىءَ عن عطفٍ زائفٍ.. بينما تَرفعُ نظرةَ التقدير من معنوياتِنَا.. ونَحنُ نَدعو لمن يَنظرون إلينا بَهذا الشَّكل بأن يَقِيهَم اللهُ ما أصابنا.. ولسوف نكونُ عاجزين عن الشكرِ إذا أنتم غَفِلتم عن عَاهتِنا، ونسيتمُوهَا كما نَنساهَا!

كانت السيدةُ أمينةُ فرحةً.. وجهُها باسمٌ، تَظهرُ عليه عَلاماتُ الرضا، وأماراتُ البهجةِ.. والسببُ ببساطةٍ شَديدةٍ، أنَّه قَد أصبحَ لهَا ابن.. تنظرُ إليه بين الحِين والآخر: تَحملُه، تَضمُه، تحتضنَهُ، تُقَبِّله، تُرضِعُه تُنظفه، تُلبسه، وتَذهبُ به إلى فراشِهِ لكى يَنامَ.. ومَعَ كلِّ حركةٍ من هَذِهِ الحركاتِ تَشعرُ بأنها سعيدةٌ غايةَ السَّعادةِ، ولم يَعُدْ هُنَاك شيء يُقلقها، أو أمرٌ يُضايقُهَا.. تمرَض فلا ترقُد، تَتعَبُ فلا تَستريحُ، إنما هى دائمًا كالنحلةِ، تَطيرُ، تَلُفّ، تدور، بل وتُغنى، وتُدندن بنغماتٍ حلوة، لا يسمعُهَا غيرُ الصغير.. وتمر بها الأيامُ لا تكادُ تَشعرُ بها أو تُحسُّ. لقد تحقق لها أحْلى أملٍ فى الدنيا. إنها «أمّ» ..

ومرَّت الشهورُ وعينُها على ابنِها، أملِها، حياتِها: إذا زاد جراما عرفتْ، وإذا استطال شعره قليلا تنبهت. الدُّنيا لا تَسَعُها حِين يَبتسمُ، وعِندمَا بدَأ يُنَاغى، ويَضحكُ كانت تطرَبُ لذلك بصورة كبيرة.. وهى لم تكن تتحدَّثُ إلا عن ابنِها.. كيفَ هُوَ؟ شَكلُهُ.. مَلامحه.. لُطفُه.. ظُرفه.. خِفَّة ظِلِّه.. ذكاؤه.. كانت تَراه فَريدًا، لم تستطع أمٌّ فى الوجود أنْ تَأتىَ بمثلِه.. وفَاتَهَا أن كلَّ الأمهاتِ يعتقدْن هذا!

وحـان الوقـتُ المناسـب لكـى يحـبوَ الصَّغيرُ، ويتحركَ، ويقفَ مستندًا إلى أمِّه، أو إلى فِرَاشِهِ، لكى يَتدربَ بعدَ ذَلِك عَلَى أنْ يَخطَو، ويسيرَ، ثُمَّ ينطلقَ جاريًا.. وسألت الأم أمينةُ نفسَها فى قلق:

- متى يَحدُث ذلك؟!

وبـدأت تضـيقُ بـتأخره فـى الوقـوفِ والخَطْـو والسَّـير، ورَاحَ الحُـزنُ يزَحفُ عليها، ولم تَستطع أنْ تَصبِرَ، فحملت ابنَها إلى الطبيبِ، الَّذِى نقل إليها خبرًا مُفزعا مُزعجا.. قَالَ لها فى أسىً:

«سيدتى.. ابنكِ لن يستطيعَ أن يمشىَ مطلقا! »

صرختْ الأم: «ماذا؟! كيف لا يمشى؟ لماذا؟!..»

ألقـتْ عـلى الطـبيب عَشـراتِ الأسـئِلة المُتلاحقة، لا تنتظرُ لكى يجيبَ وفى هدوءٍ وأسفٍ، قَالَ الطبيبُ:

«ابنُك - سيدتى - وُلدَ تنقصُه عَظْمَةٌ معينة فى ساقِهِ، ومن غيرها لن يستطيعَ المشى!!»

وأظلمت الدنيا فى وجهِ السيدة الطيبة، ورفعتْ يديها إلى السَّماءِ..

«يـاربِّ.. هـل كُـتِب عـلى ابـنى أن يظـلَّ كسـيحًا، راقـدًا فى فراشِهِ، عُمْرَهُ كلَّه؟!»

حَملت السيدةُ الطيبةُ ابنَها وطَافت بِهِ عَلَى الأطباءِ، وذاتَ يومٍ مُشرقٍ أعطاهَا أحدُ الجراحين أملاً.. قَالَ:

«ربمـا يسـتطيع ابـنُكِ أن يمشـىَ، إذ مـن الممكـن إجـراءُ جراحةٍ له وتركيبُ عظمةٍ بدل العظمةِ الناقصة! »

وفرحتْ، وابتهجتْ، وقالت للطبيب:

«أتوسَّلُ إليك أن تُجْرىَ له هذه العمليةَ الجراحيةَ.. »

قال الطبيب: «المسألةُ ليست سهلةً.. من أين سنأتى بالعظمةِ »

هتفتْ: «خُذهَا منى.. من جِسمى أنَا.. كان مَفروضًا أن أعطيَها لَهُ وهُوَ فى بَطنِى.. شَاءتِ الأقدارُ ألا يحَدث هَذَا، فليأخذْهَا الآن.. بعد مَولدِه.. وأنا عَلَى استعدادٍ لأن أعطيَه حَياتى كلَّها! »

وأجرى الطبيبُ كثيرًا من الفحص وأنذرَ الأمَّ بأنَّها قد لا تَستطيعُ هى شخصيًّا بعدَ أن يَنْتَزِعَ منها العظمةَ أن تسيرَ على قدَميْها، قالت:

«لقد سرتُ طويلا.. ورأيتُ الكثير.. أمَا هذا الصغيرُ فلا يمكن تركُهُ كسيحًا!»

وأجرى الطبيبُ الجراحةَ.. أخذ من الأمِّ «عظمةً» وضعها للابن، وتألمت هى أثناء الجراحة، لكن نَسيَتْ كلَّ آلامِها حين أبلغوها أنَّ عمليةَ الابن قد نجحتْ، وأنّه من المتوقَّع له أن يقفَ على قدميه، وأن يمشىَ ويسيرَ..

وحين حَدثَ هَذا زغردت الفرحةُ فى صدر السيدة أمينة، الَّتى بدأتْ أقدامُها لا تَقْوى على حَمْلِها لكى تنتقلَ من مكان إلى مكان، فما كان منها إلا أن قَبلَتْ رَاضيةً أن تتحرَّكَ فوق مقعدٍ له عجلاتٌ، وابنُها الحبيبُ يتَحركُ من حولها، ويَستندُ إلى المقعدِ ويَقفُ.. ويَخطو.. ويمشى.. ويسير.. بل ويجرى!

ودخل الابنُ المدرسةَ.. وأنهى دراسةَ المرحلةِ الابتدائيةِ.. والاعداديةِ.. والثَّانويةِ، بتفوق.. وإذا به يَختارُ كليةَ الطبِّ وقسمَ «العظِام» بالذات.. وتخرج طبيبَ عظامٍ ناجحا، يرفضُ أن يشبَّ طفلٌ كسيحٌ، بل إنه يُكافح من أجل أن ينقذَ الأطفالَ مما هدَّدَه، هو نفسَه ذاتَ يومٍ..

ولم يَنْسَ الطبيبُ فضلَ أمِّه.. ذكَره فى كلِّ مكانٍ.. وذاتَ عيدِ أمٍّ، من أعوام مَضَتْ، اختيرت السيدةُ أمينةُ أمًّا مثاليةً.. والحقُّ إنَّها لكذلك!

-١-

صفاءُ، الصَّغيرةُ، الجميلة، تُعانى من أذنيها، مُنذُ وعتْ عَلَى الدنيا، وهى تْضَطرُ للاقترابِ كثيرًا ممن تتَحَدثُ إليهم، وتَكادُ تَلتصقُ بهم، وتصيحُ بهم قَائِلةً..

-إنَّنى لا أسمعُك، هل لك أنْ ترفعَ صوتَك؟

وفى حجرةِ الدراسةِ، سَعتْ دَائمًا إلى أن تجلسَ فى المقاعدِ الأماميةِ، لأنَّها إذا ابتعدتْ عَنها لا تَقدرُ عَلَى مُتابعة المُعَلمةِ أو المُعَلم.. وهى ضيِّقةُ الصدر بهذا، وهى لا تعرفُ ماذا تَفعلُ مع زميلاتهَا وزملائها، الَّذِين كثيرًا مَا يُضايقُونها.. وهى فى ذَلِك الحين تحَبُ الاستماعَ إلى برامجِ الأطفالِ الَّتى يُقدمُهَا بابا شارو من خِلالَ الميكرفون.. وقدَ خَطرَ فى بَالِهَا فى هَذَا الوقتِ أن تكتبَ لَهُ رسالةً تشكو مما يَحدُثُ لها، وتَسألهُ المساعدةَ.. وهى لم تَتَوانَ فى الأمرِ، بل سَارعت، وبَعثتْ إليه عَلَى عنوانِهِ فى الإذاعةِ بخطابٍ مُوجز، حَاولت أن يَكونَ بخطٍ واضحٍ وأنيقٍ، وتمَنت لو أنّه استجاب لرغبتِهَا الَّتى أبدتْها فى سطور خطابها..

قَالت فى رسالتِها..

عزيزى بابا شارو

سلامى وتحياتى

أنا أحاولُ أنَ أسمعَ بَرامجك باستمرار لأنَّنى أحبُهَا، غـيرَ أننـى مُضْطَـرةٌ لأنْ أكونَ وحدى مَعَ المذياعِ.. بعد أن أغلِقَ من دونى الأبوابُ، وأبقَى وحدى..

هل تَعرفُ السبب؟!

لا تَغضب منى، إنَّنى أرفع من صَوتِهِ عَاليًا، وذَلِكَ يُزعجُ أسرتى ، بـل ربمـا أزعج الجيرانَ كذلك.. لكننى مضطرةٌ لذلك، لأننى ضعيفةُ السمع..

ويحدُثُ كثيرًا من زَميلاتى وزملائى أن يَسخروا منى، وهم يُحَبُونَكَ، وبوُدى أن تُوجّـه إليـهم كلمـةَ عتـابٍ.. بـل لـومٍ، لكـى يسكُتوا عنـى، ويكفُـوا عـن مُضايقَتِى، فما مِنْ ذَنْبٍ لى فيه..

صفاء

إن هى إلا بضعةُ أيام، وجاءتها المفاجأةُ.. لم تـأتِ مـن خِـلال المِذيـاع، بـل بواسطةِ البريدِ..

عزيزتى صفاء

تحياتى.. معذرةً، لن أوُجّه كَلمتى لزميلاتِـكَ وزملائـك.. لكننـى أبعـثُ بـها إليك.. أنا مثلُـكِ، وقـد أضطُـرْرتُ للاسـتعانةِ بسـماعاتِ تعوضِنـى عـن ضعـفِ سَمعى.. وإذا كنتِ تحبيننِى، لماذا لا تَفعلِين مِثلى، وتحلين مُشكلتكِ؟!

بابا شارو

- ٢ -

تَرددتْ صفاءُ قليلاً فى مُصارحة أهلِها برسالة بابا شارو إذْ لم تَرغبْ فى أن تضَعَ سَماعاتٍ فى أذُنَيْها، فقد يَزيدُ الأطفالُ من عَبثهم ومُضايقاتِهم، وربما ازدادُوا سخريةً منها، وتكفى تلك الكلمةُ التى صكَّت أذُنَيْها، ودَوت بداخلِهَا كأنها قنبلة انفجرت مَدويةً، لقد وصلت إليها عِبارةٌ نابَيةٌ..

- « صفاء طرشة »!

المسكينةُ لم تكن صماءَ بالكامل، لكنها تُعانى ضعفًا فى السمع مُنذُ ولدتْ، وقد آلمها كثيرًا أن يُقالَ عنها ذَلِكَ.. وعِندمَا توجهت بالشكوى إلى مُعلِّمتِها قالت لها..

- دعك منهم ومنهن، ركزى، وسوف تقدرين على متابعةِ ما يُقال فى حُجرةِ الدراسةِ..

- لقد وصَلَ بى الأمرُ إلى الرغبةِ فى تركِ المدرسةِ!

- مَاذا؟!.. إنَّ الأمرَ لا يَزيدُ عَلَى أنك « مختلفة » بعض الشىء عن زميلاتك، وهذَا لا يَستدْعِى منك كلَّ هذا الغضبِ والضيقِ..

- وكيف أجعلُهم يَسكتُون عنى؟

- اهملى كلماتِهم هذه..

- هم أيضا يَسخرُون بنُطقِى لبعضِ الكلماتِ..

- رُبما يكونُ السببُ فى ذَلِك راجعًا لضعفِ سمعِكَ..

– ضَعفُ سمعِى يُؤثرُ عَلَى نُطقِى؟!

– يَحْدثُ ذَلِكَ أحيانًا..

– أما من حَلٍ آخر غيرَ السماعاتِ؟

– أنت ترينَنى أضع نظاراتٍ على عينَىَّ، وعددٌ كبيرٌ من الناسِ يفعلونَ هذا، هل يعيبُهم ذلك؟

– لا أظنُ..

– إذن، جربى السّماعاتِ..

– الذين يعرفون بضعفِ سمعى قليلون، وإذا وضعتُ سماعاتٍ كأنى أعلنُ للجميع عن.. عن..

– ما قيمةُ إخفائِه؟!.. السماعاتُ سوف تحمى لك ما تبقَّى من سمعِك، وتحافظُ عليه..

– يبدو أننى مضطرةٌ إليها..

– سوف تستمتعينَ بها، وستُعينُك على أن تَسمَعِى الموسيقى، وبابا شارو، فى الإذاعة بدون أن ترفعى صوته.. ولا تنسَىْ أنَّ أعظمَ مَنْ أنجبتْ الدنيا فى عالمِ الموسيقى - وهو بتهوفن - كان فى أواخر أيامه أصَمَّ ، لا يسمعُ.. لكن الموسيقى فيما يبدُو كانت تنبعثُ من داخلِه.. الروائعُ تنبعثُ دائما من داخل النفوسِ الرفيعةِ المستوى!

دَوّتْ هذه العبارةُ ، وردَّدَتهْا..

«الروائعُ تنبعثُ دائما من داخلِ النفوسِ الرَّفِيعةِ المستوى».

– ٣ –

رأتْ صفاءُ زميلَها عماد، وقد وضعَ فى أسنانه أسلاكًا معدنيةً، أدهشتْها، ورغبتُ فى أن تعرفَ سببَ وُجودِها ، غير أنها ترددت طويلا فى سؤاله عنها، إلى أن سمعتْه يتَحدثُ عنها..

– إنها لتقويمِ أسنانِى..

–ماذا يعنى هذا؟

– إن الطبيبَ يرى أن أسنَانِى ليست منتظمةً فى الفكَّيْن، ويريدُ لهَا أن تعتدلَ..

–ويضعُ لك كلَّ هذه الأسلاكِ المعدنيةِ ؟

–أليس ذلك أفضلَ من تركِها تنمو بشكلٍ عشوائِى، وغير سليم؟

وضحكَ زميلٌ، وداعبَهُ بقولِه..

– إن ذلك أفضلُ بكثير، وحتى لا يتندَّرَ به البعضُ، قائلينَ عنه (أبو ضب)!

قهقَه عماد، وقال: ليس هذا هو ما يعيبُ الناسَ.. الذى يعيبُهم حقا سوءُ سلوكِهم..

وعقبتْ نوالُ: صالحُ أحدبُ الظهرِ، هل هو مسئولٌ على أنهُ ولِدَ بهذه الصورة ؟

كانت صفاء تسمع هذه الكلمات، فتغيِّرُ من فكرتِها فى وضع سماعاتٍ على أذنيها.. وصارحتْ أباها بذلك، وذهب معها إلى طبيب أنف وأذن وحنجرة، فقام بالكشف عليها، وقياس درجة سمعها، ووجَدهَا فعلا بحاجةٍ ماسةٍ إلى

استخدامِ السماعاتِ، وصَنع لهَا سماعتين صغيرتَينْ فى أذنيها، معلقتَيْن بسلسلةٍ ذهبيةٍ أنيقةٍ . . كأنما تضعُ فى أذنيها قُرطَينْ جميلَين، يبدوُان مثل إطار لوجهها الجميل. وكان أن شعرت صفاء بارتياحٍ شديد، وبدأت تتابعُ كلماتِ محدثيها، ومعلميها، فى سهولةٍ ويسرٍ . .

المؤلمُ ، والمزعجُ ، أن بعضَ زميلاتِها وزملائِها راحُوا منْ جديدٍ يداعبُونها مداعباتٍ ثقيلةٍ، آلمتها كثيرًا.. وحاولت ألا تعبأ بهم، لكنها لم تستْطعْ، لأن هناك بعضَ أناسٍ يحاولُون العبث، والضحكَ على حسابِ الآخرين، وعددٌ منهم يزهُو بنفسه، ويتصورُ أنه أفضلُ لمجرد قدرته على أن يسمعَ دبيبَ النملةِ، كما يقولون.. وقد تجاوزَ أحدهم حدودَهُ حين جَذَب السلسلةَ ليقطعَها ، الأمرُ الذِى جعلَ صفاءَ تبكى بكاءً مُرًا، وأبلغتَ معلمتُها بذلك، وعاقبتْ المعلمةُ ذلك التلميذَ، وطلبت من صفاء بعد حين أن تذهبَ للقاء مديرةِ المدرسة.. الأمرُ الذى أدهشها، وهى لم ترتكبْ شيئا تستحقُ عليه العقابَ، وكانت المديرة قليلةَ الاتصال بالطلبةِ، والطالبات.. ولم تجدْ صفاءُ بُدًا من أن تستجيبَ لمعلمتها.. إنها لم تكنْ تعرفُ أن هناك مَنْ يذهبُ إلى لقاء المديرةِ دون ذنبٍ..

– ٤ –

استقبلت المديرة صفاء، بابتسامة عريضة، جعلتها تشعر ببعض الطمأنينة والراحة، واستهلت المديرةُ كلماتِهَا بأن رحبت بالصغيرةِ، ثم أضافت..

– لقد علمت من معلميكِ إنك طالبةٌ متميزةٌ.. وأردت أن أحييك على هذا..

– شكرا..

– وقد نقلوا إلىّ أنك أيضا على درجة رفيعة من الخلق، وأنك تتعاملين مع الجميع بشكل طيب.. ورغبت فى أن أبلغك تقديرى لهذا..

– ولكن زملائى..

ضحكت المديرة، وقالت..

– أنت لم ترفعى بصرك نحوى يا صفاء..

– هذا صحيح..

– هذا سلك يحمل سماعات موضوعة فى أذنىّ..

–مَاذا؟

– ولم يحل ذلك بينى وبين أن أكون مديرة للمدرسة.. ولأولِ مرة تَتَطلعُ صفاء للمديرةِ لِترى السماعات، وأضافتِ المديرة..

– شقيقتى تساقط شعر رأسها، وصارت صلعاء..

واضطرت لأن تضع على رأسها شعرا مستعارًا.. هذا العصر أعطانا الفرصةَ لكى نُعوضَ أنفسنا عما يَلحقُ بنا، وعلينا أن نستفيد من تقدمِه فى هذا الشأن..

– أعرف..

– إذن، جدير بك أن تواصلى تفوقك.. وضعف سمعك لم يحل بينك وبين التفوق فى الدروس.. وأيضا فى السلوك والتصرف..

– أرجو أن أكون دائما عند حسن ظنك..

– وقد قررت أن أمنحك شهادة على تَميزك.. وسوف أسلمها لك فى طابور الصباح أمام كل هيئة التدريس، وزميلاتك وزملائك..

– حقا؟!

– نعم.. نحن بقدر ما نعاقب المُسىء ، نكافئُ المجتهد.. أنتِ قدوة صالحة لزملائك وزميلاتك.. عودى إلى حجرةِ الدراسةِ..

وعادت صفاء إلى مكانِهَا، وهى فرحة..

وفى طابور الصباح فى اليوم التالى لم تكن الدنيا تسعُ فرحتها وهى تتسلم شهادة التَّميزِ، الَّتى لم يحَصلْ عليها من كان يسخر منها.. لقد تفوقت على هؤلاء الذين يسمعون دبيب النملة! وتفوقت بالذَّات فى الموسيقى بقدرتها على أن تشنف آذان سامعها.

سؤال محرج

كثيرون منا يتعجلون طرح سؤال، وكان الأجدرُ بهم أن يسكتوا عنه، وأن يتفادوه.. ويحدثُ أن يكونَ السؤالُ مُحرجًا للطرفين، ويتمنى صاحبه لو أنه لم ينطق به، عملا بالآية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾
[الاية ١٠١ سورة المائدة]

وتؤلمكم الإجابة عليها.. وربما واجهنا جميعا مثل هذا الموقف، ولم نتنبه له، أو ضغط علينا حب الاستطلاع، أو الرغبة فى إظهار الاهتمام والعطف، ولم نتريث..

وهذه حكاياتٌ صَغيرَة وقعَت لى مع ذلك السؤال المحُرج!

- ١ -

جاءوا لنا برئيس جديدٍ فى العمل، دَخلتُ عليه لكى نتَعارفَ ولكـى أرحـب به، وأقدم لَهُ التهنئَةَ عَلَى توليه مَنصبهِ.. قَابلنى من وراءِ مكتبهِ، واسـتندُ إليـه وهُوَ يقف، يمدَ لى يَده بالتحيةِ، والسلامِ، ولكى يُتمتم بكلماتِ الشكرِ..

ولم أره بقيةَ اليومِ..

وفى اليومِ التَّالى رأيته قادمًا، يعَرجُ، ويعَتمدُ عَلَى عصـاه، فتقدمـت منـه فـى ود، وعطف، وقلتُ لهُ..

- ألف سلامةَ لسيادتك..

رد بجفاء: شكرا..

- ما لقدمك ورجلك؟

- هى معطوبة.

- أرجو لك الشفاء العاجل.

- هى ليست مرضا عارضًا.. بل مزمنا!

- مَاذا؟

- إنه شلل أطفال أصابنى مُنذ وقتٍ بعيدٍ..

- آسف، ما كَانَ يجَبُ علىّ أن أتسرعَ..

- عفوا..

وغادرنِى ، ليدخلَ إلى مكتبه ، وأنا لا أكادَ أستجمع نفسى ، وتَحاملتُ لكى أجَلسَ مُعتمدًا رأسِى عَلَى كفى ، وإحساس بالآسفِ والأسى يَغمرني ، ولم أفـق منه إلا بعد وقتٍ طويلٍ !

- ٢ -

كنت مدعوا عَلى العشاءِ عَلَى مائدة سيدة ألمانية زوجة لصديق مصرى ، وقَامت من مكانها تَحمل السلاطةَ ، وتدور بها حول المائدة ، تعرض علينا أن يَأخذَ كل ً منا مَا يريده منها . . وتطوعت للنهوضِ بسرعةٍ ، لأحمل عنها طبق السلاطة ، وأنوب عنها فى تقديمه لضيوفها . .

توقفت عن السير ، مستندة إلى مقاعد الجالسين ، فقد كانت تتحرك عَلَى ساق واحدة ، وكانت الثانية لا تكاد تقدر على مساعدتها على السير ، إذ أصيبت فى طفولتها بشللٍ حال بينها وبين المشى بسهولة . .

تطلَعت إلىَّ بعيون غاضبة ، وقالت لى . .

-دعنى . .

- أريد أن أريحك من هذه المهمة .

- من قال لك إنى أريد أن أرتاح منها ؟ !

- قد ترهقك .

- هى تمتعنى ، لذلك أريد أن أقوم بها !

- أنا آسف . .

- لن أقبل اعتِذَاركَ ، وعقابك أننى لن أقدمَ إليك طبقَ السلاطة !

وتوسلت إليها أن تُسامحنى ، وتغفر لى خطيئتى ، ولم تقبل . . ومن جانبى لم أستطع أن أواصل تناول طعامى ، بعد أن نضحَ جبينى بالعرقِ !

– ٣ –

تَعبت عين ندى الصغيرة ، وكَانَ أن اصطحبتها أمها إلى طبيبِ العيون ، وبعد الكشف عليها رأى أنه من الضرورى أن تضع عصابة سوداء على عينها ، وفزعت الصغيرة ، ورفضت ذلك رفضًا باتا ، على الرغم من تلك الأوامر المشددة التى قالها الطبيب . . ودار بين الصغيرة وبين الأم حوار طويل . . قالت ندى . .

–لا يمكننى قط أن أخرج بهذه العصابة السوداء . . ولن أذهب بها أبدا إلى المدرسة . .

هتفت أمها فى استنكار : ماذا ؟ !

– لقد سمعتنى يا أمى . .

– نعم ، وأرفض ما قلته . . هذا أمر الله ، وأمر الطبيب . .

– زميلاتى وزملائى سيسخرون منى . .

– ولو . . جدير بك أن تحتملى سخافاتهم !

– سوف يعيّرونننى ، ويطلقون علىّ موشى ديان . .

كتمت الأم ضحكتها وقالت :

–لم نكن نسخر من عصابته السوداء على عينه ، بل على تفكيره ، ليصبح دمويا ووحشيا . .

– أما من حلٍّ آخر ؟

– لا . .

– واضطرت ندى لقبول الأمرِ الواقع ، وإن ضاقت بالأسئلةِ الَّتى يَطرحها كلٌّ من تلقاهم ، وجاءتنا الأمَ مهمومةً حزينةً لهذا ، وحاولنا أن نهون عليها الأمر، ونخفف من وقعه . . إن هى إلا أيام وتَرفع ندى الضمادة . .

وفى اليوم التالى قدمت الزميلة ومعها ابنتها الصغيرة الجميلة ، نـدى ، وقـد وضعت على عينيها العصابة السوداء . . رحبت بـهما ، وبـدأت أتحـدث مـع الطفلةِ عن كلّ شيءٍ . .

–مَاذا تحبين من ألوانِ الطعام ؟

– هل تتابعين قصصنا فى الإذاعةِ والمجلاتِ ؟

– ما هى هوايتك المفضلة ؟

كانت الصغيرةُ تنطلقُ فى إجاباتها ، وتَتوسع فيها ، والحديث بيننـا يتَفـرعُ ويَتشعبُ . . وعِندَما عادت إلى البيتِ قالت لأمها . .

– استمتعت كثيرًا بالحديث مع الأسـتاذ عبـد الوهـاب ، إنـه يَطـرحُ أسـئلة لطيفة ، ويَحسن الاستماع ، و . . .

وجاءتنى الأمُّ تَحمل هذا الثناء والإطراء ، وهى فى دهشةٍ لَه ، لأن الصغـيرة ضاقت بحديث الجميعِ إليها ، وبحب الاستطلاع لديهم ، وسألتنى الأم :

–فيما تحدثتما مما جعلها سعيدة بهذه الصورة ؟

– تحدثنا فى كلِّ شىءٍ .

– فى كلِّ شىءٍ ؟

– نعم ، لكننى لم اسألها عن الضمادة السوداء على عينيها . . ولم أشر إليها على الإطلاق لأنـى أعـرف أنـه سيضايقها أن أسـأل عَنـها لأنـه سُؤال مُحـرج لا تحب أن يَطرحَهُ عليها أحد !

رقم الإيداع	٢٠٠٠/١٣٥٥٦	الترقيم الدولى	977-02-6040-1	ISBN

٧/٢٠٠٠/٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)